رفاعة رافع الطهطاوي بين هويته العربية الإسلامية وفكره الليبرالي الغربي ...أي مفارقة؟

Rifa'a Rafi' al-Tahtawi between his Arab-Islamic identity and his Western liberal thought...what a paradox?

لغواطي ياسمين
جامعة البليدة2 –الجزائر-
docteur.yasmine@yahoo.com

حاروش نورالدين*
جامعة الجزائر3 –الجزائر-
harrouche.noureddine@univ-alger3.dz

تاريخ الاستلام: 2022/04/23 تاريخ القبول للنشر: 2022/09/12 تاريخ النشر: 2022/10/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية لتبيان خلفية الطهطاوي التربوية وتنشئته الاجتماعية وأفكاره التي تبدو غير منسجمة مع بيئته، ومن الصعب تقبلها في ظل ظروف خاصة كانت تمر بها الأمة العربية والإسلامية، فالطهطاوي خريج الأزهر رافق بعثة علمية مصرية إلى فرنسا كإمام لها، لكنه تأثره بطبيعة الحياة ومستوى المعيشة في فرنسا آنذاك، عصر التنوير، وهو ما جعله يسعى للاستفادة من هذه الميزة ونقلها الى مصر. وخلصت الدراسة الى توضيح ذلك التناقض البين بين بيئة الطهطاوي الاجتماعية و بيئة أفكاره السياسية، مما جعله محل انتقاد شديد، لكن المفارقة أن أفكار الطهطاوي الداعية لتبني الديمقراطية الليبرالية وجدت طريقها للتجسيد ولو شكليا في كل الدول العربية والإسلامية تقريبا ولكن بعد مرور قرنين من الزمن.

الكلمات المفتاحية: الطهطاوي، الحكم الملكي، الديمقراطية الليبرالية، التشريع، الحرية السياسية.

Abstract:

This research paper aims to show al-Tahtawi's educational background, his social upbringing and his ideas that seem inconsistent with his environment, and it is difficult to accept them under special circumstances that the Arab and Islamic nation was going through. In France at the time, the Age of Enlightenment, which made him seek to take advantage of this feature and transfer it to Egypt...The results reached through this study are represented in the contradiction between Al-Tahtawi's social environment and the environment of his political ideas, which made him the subject of severe criticism. about two centuries ago,

***Keywords**: Tahtawi, monarchy, liberal democracy, legislation, political freedom.*

* المؤلف المراسل

مقدّمة:

تجاوزت مرحلة النهضة الأوربية مخلفات العصور الوسطى والتي ميزها الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية، من خلال الفكر التحرري والعقد الاجتماعي والإصلاح الديني البروتستانتي الذي كشف مغالطات الكنسية الكاثوليكية، مما حرر عقل الإنسان الأوربي بعدما كان في سجن المعتقدات الدينية القديمة، و بدأت ملامح التطور والتقديم في المجتمعات الأوربية خاصة انجلترا وفرنسا، ويعود الفضل في ذلك لنخبة من المفكرين البارزين في مجال السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وغيرها، منهم مارتن لوثر وجون كالفن وجون استيوارت ميل وجيرمي بينتام ومونتيسكيو وجون جاك روسو وغيرهم، هذه الأحداث دغدغت مشاعر بعض المفكرين من الأمة العربية والإسلامية لمجاراة هذا التقدم والاستفادة من ثماره وذلك بإتباع نفس الأساليب خاصة في المجال السياسي، ذلك ما مهد لظهور النهضة العربية الإسلامية من خلال العديد من التيارات الفكرية، والتي كانت نتيجة للعديد من الأسباب على غرار النهضة الأوربية، لعل منها الحالة المزرية والتخلف المتعدد الأوجه والأشكال الذي يميز الأمة العربية والإسلامية.

من المعروف أن الأمة العربية والإسلامية مرت بعد سقوط بغداد على يد المغول (جورج هولاكو عام1257 م) بحالة من التراجع، بدأت بانهيار الخلافة الإسلامية وتوالي سلالات مختلفة، تارة من الأتراك وتارة أخرى من الفرس لحكم بلاد الإسلام، لكن هذه الحالة لم تكن ثابتة ومستقرة حيث بدأت تهتز مع بداية القرن الرابع عشر ميلادي لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية إلى أن جاء سقوط غرناطة1492 م .

وبعدها حاولت الخلافة العثمانية إعادة بعث مجد الأمة الإسلامية بداية من عام1516 م والمحافظة على هذا الدور، لكن دوام الحال من المحال حيث مثلت فترة أواخر عهد الخلافة العثمانية أسود مرحلة من تاريخها وتاريخ الأمة الإسلامية لأنها قامت على العنصرية مما أدى بها إلى تدمير الهوية الأم(الإسلامية) في دينها ولغتها وتاريخها، ومهدت هذه الأحداث لوقع البلاد الإسلامية تحت نفوذ الاستعمار الأوربي .حينها بادر بعض المفكرين لإعادة بعث الأمة الإسلامية ونهضتها من جديد بداية من القرن التاسع عشر ميلادي، هذه النهضة أو قل اليقظة تمثلت في العديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية، منها التيار الليبرالي والذي يتزعمه بدون منازع رفاعة رافع الطهطاوي، والتيار الثوري بزعامة جمال الدين الأفغاني، والاتجاه الإصلاحي

الذي يمثله على الخصوص الشيخ مُحَمَّد عبده، وفي الأخير التيار القومي الذي يعود لإسهامات فيلسوف القومية العربية ساطع الحصري.

وسنقوم في هذه الدراسة بالتركيز على التيار الليبرالي والذي يمثله رفاعة رافع الطهطاوي ونتساءل عن مكامن الإسهامات العلمية، خاصة السياسية، للطهطاوي، وهل هناك توافق أو تعارض في طرحه الفكري؟ وهل الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية وواقعها مقارنة بالدول الأوربية جعلته يتبنى أساليب هذه الدول لقطف ثمار التطور والتقدم مثلها؟

لم يكن الطهطاوي في الحقيقة الوحيد الذي تجرأ في الطرح الليبرالي وإمكانية تطبيق الديمقراطية الغربية في المجتمعات العربية والإسلامية، بالرغم من الانتقادات الشديدة التي وجهت له، بحيث سبقه الى ذلك ابن رشد والكندي من خلال إعجابهم وانبهارهم بالحضارة اليونانية وفلسفتها، وهم بدورهم كان لهم نصيب من الانتقادات ومرد ذلك هو اختلاف البيئة الاجتماعية بين الدول العربية والغربية واستحالة تطبيق هذه النماذج السياسية على الأرضي العربية والإسلامية.

تكمن الأهمية العلمية لهذه الدراسة في تسليط الضوء على أفكار الطهطاوي خريج الأزهر وكيف غير من فكره بصورة جذرية عندما أحتك وعايش المجتمع الفرنسي وعاين مستوى الحياة والتطور والتقدم نتيجة النظام الليبرالي الديمقراطي الذي تبنته فرنسا، وهو ما تأثر به و دعا الى تطبيقها في مصر وباقي الدول العربية والإسلامية بدون مراعاة الجوانب الثقافية والدينية لهذه المجتمعات، ما جعل أفكاره هذه تواجه العديد من الانتقادات، كما نوضح من خلال هذه الورقة البحثية الجانب الثاني من أفكار الطهطاوي وهو: ماذا لو طبقت الدول العربية والإسلامية أفكار الطهطاوي أي تبني النظام الديمقراطي في وقته، بداية من القرن التاسع عشر، لان هذه الديمقراطية أصبحت اليوم حديث ومحل تطبيق من قبل كل دول العالم تقريبا بما فيه الدول العربية، ولو نظريا أو شكليا؟ فكم من الوقت ضيعت الأمة العربية والإسلامية من بداية القرن التاسع عشر الى بداية القرن الواحد والعشرين، للبحث عن النظام الكفيل بإخراجها من التخلف والديكتاتورية الى التقدم والتحرر...والذي تجسد في الثورات العربية الأخيرة (الربيع العربي)، مع الإشارة إلى الاختلاف الجوهري بين دعوة الطهطاوي لتبني الديمقراطية الليبرالية من خلال الطرح الفكري، ومحاولة تطبيق هذه الديمقراطية مؤخرا من خلال القرارات سياسية (الديمقراطية المقننة).

من اجل معالجة هذا الموضوع، وكونه تاريخي نستعين بالمنهج الاسترادادي التوثيقي مع الوصف والتحليل والاستقراء للوصول الى النتائج المنتظرة بطريقة علمية دون إغفال المنهج البيئي المقارن كون أفكار الطهطاوي مستوحاة من بيئة ليست بيئته الأصلية وهي تختلف عن البيئة العربية والإسلامية مما يصعب من تطبيق وتبني هذا الطرح الفكري.

وقد ارتأينا معالجة هذا الموضوع وفق خطة بسيطة تتمثل في دراسة تنشئة الطهطاوي وإنتاجه الفكري في المبحث الأول، ويعالج المبحث الثاني إسهاماته الفكرية وآرائه السياسية، بينما نخصص المبحث الثالث لمعالجة أهم الانتقادات التي وجهت للطهطاوي.

المبحث الأول:

تنشأة الطهطاوي وإنتاجه الفكري

ستتم معالجة هذا المبحث من خلال مطلبين، يتطرق المطلب الأول لدراسة مولد الطهطاوي ونشأته بينما نستعرض في المطلب الثاني إنتاجه الفكري والعلمي.

المطلب الأول: ـ المولد والنشأة:

الطهطاوي من مواليد 15 أكتوبر عام 1801 بطهطا ، صعيد مصر، وإليها ينتسب، ينتمي إلى عائلة من الأشراف، تعلم رفاعة القراءة والكتابة وأتم حفظ القران الكريم، ولما توفى والده عاد إلى مسقط رأسه لتتكفل به أسرة أخواله التي كانت لها مكانة علمية ودينية، وقد تأثر رفاعة بهذا الجو العلمي والديني وهو ما جعله ينهل من هذه العلوم خاصة في المجال الفقهي والنحوي والمنهجية.

التحق بالجامع الأزهر عام 1817 وبعد ست سنوات تأهل ليكون احد العلماء الذين ينتقلون من مجال التلمذة وطلب العلم إلى مجال التدريس، عمل بالجيش ثم انتقل كإمام في بعثة علمية إلى باريس دامت خمس سنوات، وهناك واصل دراسته حيت تعلم اللغة الفرنسية ودرس كتب التاريخ والفلسفة الإغريقية والمنطق وسيرة نابليون وتعرف على فكر المفكرين والفلاسفة البارزين في القرن الثامن عشر في فرنسا أمثال فولتير وروسو ومونتيسكيو، حيث تأثر بعصر التنوير في فرنسا وحاول بالمناسبة معرفة طبيعة الحياة في المجتمع الفرنسي.

بعد عودته إلى مصر عمل مترجما في العديد من المدارس المتخصصة ثم أنشأ مدرسة للترجمة عام1835 م، كما عمل كذلك رئيس تحرير جريدة الوقائع المصرية من 1832 إلى1850 م والمجلة العسكرية، بعد وفاة مُحَمَّد علي 1849 فقد الطهطاوي العطف الذي كان يتلقاه وفي عهد خلافة عباس الخديوي أرسل الطهطاوي إلى الخرطوم ليفتح مدرسة فيها ودامت إقامته هناك

أربع سنوات اعتبرها نفيا، بعدها عاد إلى مصر عام1854 م وتقلد عدة مناصب ووظائف إدارية في معاهد تعليمية، كما أشرف على ترجمة القوانين الفرنسية إلى العربية بداية من1863 م، وكان آخر منصب شغله هو رئيس تحرير مجلة روضة المدارس، توفي يوم 27 ماي1873 م عن عمر يقارب 72 سنة.[1] ، فما هو الإرث العلمي والفكري الذي تركه لنا الطهطاوي؟

المطلب الثاني: إنتاجه الفكري والعلمي:

يتميز الطهطاوي بإنتاجه العلمي الغزير والذي شمل العديد من المجالات والأنشطة منها التأليف والنشر ومنها الترجمة والتفسير والشرح، وعلى العموم يمكن إجمال إنتاجه العلمي فيما يلي:

- كتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريز، وقد لقي شهرة واسعة وترجم إلى التركية، يتضمن الكتاب وصفا دقيقا لحياة المجتمع الفرنسي مبديا إعجابه الكبير بهذا النمط المعيشي، أين كانت أوربا عموما وفرنسا على وجه الخصوص تعيش في عافية تامة وهو ما جعله يصف فرنسا بإعجاب وانفتاح[2]، وختم كتابه هذا بترجمة للميثاق الدستوري الفرنسي لعام1814 م.
- كتاب مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية عام1869 م، وهو كتاب في الثقافة أو التثقيف السياسي.
- كتاب المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، طبع بعد وفاته مباشرة1873 م، ويتضمن التربية الوطنية والتمدن وغيرها[3]
- أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل.
- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، وهو آخر كتاب ألفه الطهطاوي، وسلك فيه مسلكا جديدا في تأليف السيرة النبوية تبعه فيه المحدثون

وفي مجال النشر، قام بنشر بعض الكتب المهمة منها:

- تفسير القرآن لفخر الدين الرازي.
- المقامات الحريرية.
- مقدمة ابن خلدون.

أما الكتب التي قام بترجمتها فهي تزيد عن خمسة وعشرين كتابًا، وذلك غير ما أشرف عليه من الترجمات وما راجعه وصححه وهذبه، ونذكر منها:

- تواريخ للعالم القديم وللقرون الوسطى وللملوك فرنسا: سيرة بطرس الكبير وشارل الثاني عشر وتاريخ الإمبراطور شارل الخامس.

- ترجمة كتاب عن الفلاسفة الإغريق .
- ترجمة كتاب تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم لمونتيسكيو[4].

ومن الكتب التي تسير لنا الأمر الاطلاع عليها، والتي عالجت الإنتاج الفكري للطهطاوي مؤلفات مُحَمَّد عمارة في كتابه الموسوم بـ :الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي في الدين واللغة والأدب[4]، وقد تضمن هذا الجزء رسائله ومقالاته في الدين واللغة وكذلك خطبه في التربية والتعليم والتهاني الشعرية التي كتبها لأمراء عصره وأخيرا المقدمات التي كتبها للكتب التي ترجمها، وما أورده في ثناياها من أشعار .والكتاب الآخر لنفس المؤلف والذي حمل عنوان :الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي :التمدن والحضارة والعمران، وهي دراسة في فكر الطهطاوي عن التمدن والسياسة والاجتماع .[5]

المبحث الثاني:
إسهاماته الفكرية وآرائه السياسية

يتميز الطهطاوي بإنتاجه العلمي والفكري الغزير وهو بلا شك يترجم أهم إسهاماته الفكرية وآرائه السياسية، وعليه سيتم معالجة هذا المبحث وفق العديد من المطالب، ففي المطلب الأول نستعرض فكره الديمقراطي الليبرالي، وفي المطلب الثاني مفهوم السياسة وأقسامها، وفي المطلب الثالث نظرية الفصل بين السلطات، وفي المطلب الرابع رأيه في الحرية والمساواة، وفي المطلب الخامس تصوره للحاكم الأعلى، وفي المطلب السادس مساهمته في إصلاح القضاء والفكر التشريعي في مصر

المطلب الأول: الطهطاوي والفكر الديمقراطي الليبرالي:

نتيجة اهتمامه وتأثره بالفكر الديمقراطي الليبرالي حاول الطهطاوي دراسة مكونات هذا الفكر أو النظام، حيث ركز على السياسة أو التدبير أو الحكم وأقسامها وكذلك نظرية الفصل بين السلطات، بالإضافة إلى الحرية والمساواة وهي كلها مفاهيم ومبادئ الفكر الديمقراطي الليبرالي.

كان من المبشرين بالفكر الديمقراطي الليبرالي في بلاد الشرق التي تعودت على الحكم الفردي بالرغم من التناقض الموجود بين مبادئ هذا الفكر الجديد والواقع، حيث لم يكن متناسبا مع مستوى التطور المادي والاقتصادي للمجتمعات العربية والإسلامية والمجتمع المصري على الخصوص، لكن تأثير الطهطاوي بهذا الفكر وهذا النظام كانت جليا نتيجة احتكاكه بالمجتمع الفرنسي وما بلغه من تطور وتقدم ورقي بفضل هذا النظام السياسي، وسعيا منه لقطف الثمار

دعا المجتمعات العربية الإسلامية إلى تبني هذا النظام الجديد علها تحقق ما حققته فرنسا ولكن هيهات...

يقول الطهطاوي هناك أشياء لا توجد في الشريعة الإسلامية، ولكن العقل لا ينكرها بل يقبلها، فلم لا نقبلها نحن أيضا؟ الملاحظ أيضا أن الطهطاوي يجمع بين التحفظ والاحتياط من جهة وبين الموافقة والتشجيع من جهة أخرى، وأن الأساس يبقى دائما أساسا عقليا، فمعيار الحكم هو العدل وان الشريعة لا تقبل ومنه نرى أن أساس العدل أي المعيار الجديد سيكون علمانيا[6] »العدل أساس الملك أو الحكم أو العمران"

المطلب الثاني: مفهوم السياسة وأقسامها:

يرى الطهطاوي أن السياسة هي البحث في علم تدبير المملكة والخوض فيه محادثة ومناقشة وكتابة، ويعرفها قائلا «:السياسة هي ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها.[7]«" وقد دعا إلى تعليم مبادئ السياسة لكافة أبناء الشعب إدراكا منه لأهمية السياسة في حياة الشعب من خلال قوله ...» :في الحقيقة لولا السياسة ما قامت لنا دولا وما كان أضعفنا نهبا لأقوانا. [8] «

وقد قسم الطهطاوي السياسة إلى خمسة أقسام هي:

1. السياسة النبوية وهي السياسة التي يختص الله بها من يشاء من عباده، حيث يقول الله سبحانه وتعالي :﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.
2. السياسة الملوكية وهي السياسة العليا للدولة المتمثلة في حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
3. السياسة العامة وهي تطبيق السياسة العليا للدولة على مستوى المصالح والأقاليم التي تتكون منها الدولة كالإدارة المحلية والجماعات المحلية والأمراء على البلدان والجيوش وترتيب وتدبير أحوالهم والنظر في الضبط والربط والحسبة وغيرها.
4. السياسة الخاصة أو السياسة المنزلية وهو معرفة كل إنسان تدبير شون منزله.
5. السياسة الذاتية وتعني تفقد الإنسان أفعاله وأحواله وأقواله وأخلاقه وشهوته ..[9](1)إنها السياسة البدنية باختصار.

المطلب الثالث: نظرية الفصل بين السلطات:

لم يكن مفهوم الفصل بين السلطات عند الطهطاوي بالمفهوم الحديث لأن الحاكم في عصره كان يملك كل السلطات في يد واحدة، ومع هذا يعتقد الطهطاوي أن المجتمع بحاجة إلى قوتين:

1. القوة الحاكمة :وهي الحكومة والملكية وتتضمن ثلاثة أنواع من القوى وهي القانونية والقضائية والتنفيذية وهي مقيدة بالدستور والقانون.
2. القوة المحكومة وهي الشعب أو الرعية التي تتمتع بالحرية وبالمنافع العمومية .

كما أضاف أن مهمة المجالس النيابية لا تعدو أن تكون مهمة استشارية أي أنها لا تقوم بعملية التشريع وسن القوانين.

المطلب الرابع: رأيه في الحرية والمساواة :

الحرية عنده هي العمل المباح من دون مانع غير مباح ولا معارض محظور، أي أن الأفراد لهم حرية التصرف في أنفسهم ووقتهم وعملهم لا يمنعهم مانع إلا المانع المحدد بالشرع أو السياسة، ومن جهة أخرى يصنف الحرية إلى خمسة أصناف كما قسم السياسة من قبل إلى خمسة أقسام وهي:

1. الحرية الطبيعية وهي الحرية الفطرية كالمأكل والملبس والمسكن وغيرها.
2. الحرية السلوكية وهي حسن السلوك ومكارم الأخلاق.
3. الحرية الدينية وهي حرية العقيدة والرأي والمذهب بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين
4. الحرية المدنية وهي الحقوق المتبادلة بين أفراد المجتمع (الحقوق الواجبات)
5. الحرية السياسية وهي تأمين الدولة لكل فرد على أملاكه الشرعية وحريته الطبيعية ومن واجب الحكومة المحافظة على الأصناف الخمسة للحرية.[10]

أما بخصوص المساواة فهي المساواة أمام القانون- الحرية والملكية والأمن -وهي حقوق الفرد التي لا تمس كما جاء في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان بعد الثورة الفرنسية عام1789 م.

المطلب الخامس: تصوره للحاكم الأعلى

يرى الطهطاوي أن الحاكم الأعلى أو ولي الأمر هو رئيس أمته، وصاحب النفوذ الأول في دولته، وأنه خليفة الله في أرضه وأن حسابه على ربه فليس عليه في فعله مسؤولية لأحد من رعاياه، لكن حكمه مقيد بالقوانين وليس حكما مطلقا ولم يكن الطهطاوي يؤمن بحق الشعب بالخروج على سلطة الحاكم الذي قد يثقل على رعيته شيء من أحكامه، فما عليهم إلا الصبر، هذا الحاكم يجب أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات والسمات وهي:

- أن يتبصر في العواقب
- أن يعلم دائما وفي جميع أوقاته أن الله تعالى اختاره لرعاية الرعية

- أن الله تعالى جعله ملكا على الرعية وليس بمالك لها
- أنه راعيا لرعيته وأن يضمن لها غذائها الحسي والمعنوي لا أن يكون أكلا لها.
- أن يرشد بأفعاله الحسنة رعيته وأن يعينهم على الحصول على كمال الحرية.
- هذا الحاكم يعامل أحرار الناس بالمودة ويعامل العامة بالرغبة والرهبة ...وأن يمزج اللين بالخشونة للإهابة. [11]

من خلال هذه الأفكار يبدو أن الطهطاوي لم يطرح فكرة الجمهورية في مصر بقدر ما طرح فكرة استبدال الملكيات المطلقة بالملكيات الدستورية أي الحكم المقيد بالقانون،مع ايمانه بنظرية الحكم الإلهي، بالرغم من تأثره الشديد بالنظام الديمقراطي الليبرالي الغربي. كما يبدو أن تأثره بمونتيسكيو خاصة كتابه روح القوانين واضحة، حيث استمد منه الكثير من الأفكار، فما هو مضمون كتاب روح القوانين لمؤلفة مونتيسكيو لمعرفة الاستعارة التي قارة بها الطهطاوي؟

ـ روح القوانين من أشهر ما ألف مونتيسكيو عام1748 ، ذكر فيه أن إنجلترا هي الشعب الوحيد في العالم الذي أحسن الاستفادة أفضل من غيره في هذه الأشياء الثلاثة العظيمة بآن واحد :الدين - التجارة - الحرية، كما فسر مونتيسكيو معنى وجود تشريع معين في بلد معين، ويبحث عن النظام المقبول عقليا، وسماته الرئيسية هي:

- التنوع :أي أن العالم متنوع، و أن القانون هو نظام علاقات (النسبية)،
- الحتمية أي أن القوانين هي الروابط الضرورية المشتقة من طبيعة الأشياء،
- العقلانية أي أن القوانين وضعت لتعلم أحكام العقل لمن لا يستطيع تلقينها من العقل مباشرة، ـ
- الشكوكية أي أن المشرعين هم في الغالب أعجز من أن يقوموا بمهمتهم (عظمة القانون ومحدودية المشرعين...).

بالإضافة إلى أهم نقطة عالجها في كتابه روح القانون وهي نظريته في الحكومات و الفصل بين السلطات[12]

أعجب مونتيسكيو بالنظام الروماني، (خاصة العصر الجمهوري: 509 ق م ـ 27 ق م ، الذي تميز بالتوسع الجغرافي لروما واحتلالها للدول المجاورة)، وبعده بالنظام الدستوري الإنجليزي، ويدعو للاعتماد عليهما كأساس لقيام حكم دستوري يهدف إلى تحقيق العدالة والحرية في فرنسا، ويعتبر الحكم بمقتضى القوانين لب الموضوع، لأن واجب الحكومة هو ضمان حرية وحقوق الأفراد وتوطيد الثقة بينهم وبين دولتهم، وهذا الضمان يأتي عن طريق القانون وليس من الأفراد الذين يحكمون ويقررون حسب أهوائهم الشخصية، والمحافظة على حرية الأفراد أساسية

ويجب أن تكون سلطة الحكومة محدودة وتتمثل هذه الحدود في وجود ثلاث هيئات سياسية تقوم بدورها المخول لها وهي:

1ـ سلطة تشريعية تكمن مهمتها الأساسية في تحضير وسن القوانين وتعديلها أو إلغائها.

2ـ سلطة تنفيذية ومهمتها العمل والإشراف على تحقيق الأمن والدفاع عن البلد واستقبال البعثات الدبلوماسية.

3ـ سلطة قضائية وتكمن مهمتها في فض النزاعات وإقامة العدل بين الأفراد ومعاقبة مرتكبي الجرائم وحل الخلافات...

إن فكرة مونتيسكيو التي تدعو إلى الفصل بين السلطات والتي أعطته شهرة عالمية تتمثل في أن لا تجتمع هذه السلطات في يد واحدة، وبالتالي فهو يدعو إلى المشاركة في السيادة بين القوى السياسية الثلاث، وأيضا القوى الاجتماعية الثلاث الملك والشعب والأرستقراطية، ونستخلص من هذا انه هناك نوع من التطابق بين الأفكار الدستورية والأفكار الاجتماعية، ثلاث قوى اجتماعية تقابلها ثلاث قوى سياسية.

أما بخصوص الحرية السياسية فيرى مونتيسكيو أنها ليست أن يفعل الإنسان ما يريد، وإنما هي الحق في فعل ما يريد في حدود ما تسمح به القوانين، ولا يجبر على فعل ما لا يرغب فيه وما هو ممنوع، فإذا استطاع أي مواطن أن يفعل ما تحرمه القوانين يفقد بذلك حريته لأن الآخرين يتمتعون بنفس الحرية.

يتبين لنا بأن أفكار الطهطاوي تتطابق إلى حد كبير مع أفكار مونتيسكيو الفرنسي، وفي اعتقاده أن نقل هذه الأفكار من بيئة إلى أخرى نحصل على نفس النتائج وهذا ما لم يحصل ولن يحصل، لأننا لا يمكن أن نزرع بدرة في غير بيئتها وننتظر منا الثمار؟

المطلب السادس: مساهمته في إصلاح القضاء والفكر التشريعي في مصر

حاول الطهطاوي التوفيق بين ما وصل إليه الغرب في مجال القانون والتشريع، خاصة فرنسا، ومبادئ الفقه الإسلامي، حيث يرى أنه لا يوجد تعارض بينه وبين الشريعة الإسلامية، فما يسمى عندنا يقول الطهطاوي بأصول الفقه يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية و المساواة[13]، وكانت نية الطهطاوي في الاستفادة من القوانين الأوربية بالنسبة للقضاء المصري وليس فرض القوانين الأجنبية على المجتمع المصري.

المبحث الثالث:
نقد فكر الطهطاوي

إن أول انتقاد يمكن أن يوجه للطهطاوي من طرف الفقهاء المسلمين يعود لأبي حامد للغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة حيث رد على فلسفة الفارابي وابن سينا قبل ولادة الطهطاوي بحوالي تسعة قرون، ولكن مضمون الرد ينطبق على الطهطاوي نتيجة تبنيه نفس أفكار الفارابي وابن سينا وابن رشد فيما بعد...لذا ستعالج هذا المبحث في مطلبين، الأول يخص النقد الضمني والقبلي لأبي حامد الغزالي، والمطلب الثاني نستعرض فيه نقدا موضوعيا لفكر الطهطاوي ما له وما عليه.

المطلب الأول: النقد القبلي للغزالي

لقد كفر الغزالي هؤلاء الفلاسفة المسلمين وبين في كتابه التناقض والسفسطة والحجج المستعملة في فلسفتهم والمخالفة للعقل واستنتج أن الفلاسفة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام وهم:

1ـ الدهريون: وهم فرقة منتشرة في النظام المعتزلي في العراق لا تؤمن بالدين ولا تؤمن بالمحسوس ولا تعتقد أن وراء هذا العالم المادي عالم، فلا ميعاد ولا ثواب ولا عقاب، ونسبهم إلى الدهر جاء على ضوء الآية: "وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"، استمدوا أكثر تعاليمهم من الفلسفة اليونانية القديمة والمدارس الفلسفية التي ظهرت بعد انهيار الحضارة اليونانية.

2ـ الطبيعيون: هم الفلاسفة الذين اهتموا بالبحث في عالم الطبيعة حيث يعتقدون بأن القوة الكامنة للإنسان تابعة لمزاجه، والنفس البشرية تموت بموت البدن وهؤلاء بحثوا في الطبيعة ومارسوا علم التشريح ورأوا عجائب الخلق فآمنوا ولكنهم نكروا الآخرة فهم زنادقة لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر.

3ـ الإلهيون : وهم الذين ردوا على الدهرين والطبيعيين كما رد أرسطو على أفلاطون وسقراط في بعض الأمور الفلسفية، وهذا الرد أحيانا نجد فيه التكفير للذين يتأثرون بفلسفة أرسطو كالفارابي وابن سينا [14] وبعدهم ابن رشد، يحاولون التوفيق بين الفلسفة والدين، ويرى الغزالي أن الدين نص شرعي كامل لا يحتاج لمن يوافقه أو يكمله.

أما ابن رشـد 1126 ـ 1198 م، فيعتبر من بين الفلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفكر اليوناني أو بالثقافة اليونانية وخاصة كتابات أفلاطون وأرسطو، حيث قام بنقل وترجمة

هذه الفلسفة إلى عدة لغات، وهو من المفكرين العقلانيين الإسلاميين في العصور الوسطى الذي عرف ازدهار المعرفة الإسلامية وخاصة المعرفة العقلية. [15]،

لم يكن تأثر ابن رشد بفلاسفة اليونان فقط، بل تأثر أيضا بابن ماجة وابن طفيل وهما من فقهاء الأندلس، وفي مؤلفه" فصل المقال بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، يرى أنه هناك تناقضا بسيطا بين الفلسفة والشريعة ويقول في هذا الصدد نحن مأمورون بالنظر في كلامهم حسب كلام الشريعة، فإن اتفق مع ما عندنا في الشرع قبلناه وشكرناهم عليه، وإن كان مخالفا للشرع تركناه وعذرناهم[16]، مستشهدا في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة : ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾*

والمعروف أن كل ما قدمه المفكرون الإسلاميون الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية من محاولات التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الإسلامية قد رفض من قبل جمهور فقهاء أهل السنة والجماعة بدليل أن الإسلام شريعة متكاملة غنية عن كل الفلسفات والنظم الوضعية لقوله تعالي :﴿إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**

لم يكن ابن رشد السباق إلى هذا التوفيق، بل سبقه إلى ذلك الكندي 873 - 813 م، الذي لقب بفيلسوف العرب والذي يقول بأن المعرفة طريقان :طريق العقل وطريق الوحي، وهذان الطريقان يوصلان إلى حقيقة واحدة وإن اختلفت الطرق المؤذية إليها، أما ابن سينا فتبع طريق التأويل وذلك في التوفيق بين آرائه الفلسفية ومعتقداته الدينية، ويرى ابن طفيل بأن الدين والفلسفة بمثابة واحدة تتمثل في معرفة الخير المطلق وهذه المعرفة تكون عن طريق العقل وعن طريق الوحي أيضا [17] ، ولكن ابن رشد لم يحاول التوفيق بين الفلسفة والشريعة فحسب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث ألف كتابا في هذا المجال وهو ،فصل المقال، وبدأ يطرح في أسئلة كثيرة منها: ما هو موقف الشرع من الفلسفة، ويقصد هل النظر في الفلسفة مباح شرعا أم محظور أو مأمور به؟

ويقدم الجواب التالي :إن الفلسفة هي النظر في الموجودات أتم نظر وأعمق وان هذا النظر يريانها مصنوعات ولها صانع هو الله ويستدل بالآية الكريمة :﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾، والآية الأخرى :﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾، والآية الأخرى :﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ .

ومن خلال هذه الآيات يستدل ابن رشد بأن الله يأمرنا بدراسة الفلسفة لأنها الباب المؤدي إلى معرفة الله.

يطرح ابن رشد السؤال الثاني وهو :هل يتفق الشرع والفلسفة ؟

ويجيب بالإيجاب :الإسلام حق وما يؤدي إليه النظر الفلسفي البرهاني حق والحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له، إلا أن في الشرع ظاهرا وباطنا، حيث رأى أنه هناك تفاوت في العقول، وعلى هذا الأساس قسم الناس إلى ثلاثة أصناف وهي:

1ـ برهانيون :أي هؤلاء الذين لا يصدقون إلا بالبرهان اليقين.

2ـ جدليون :وهم المتكلمون كالمعتزلة والأشعرية يحاورون اليقين ولا يبلغونه.

3ـ خطابيون :هم جمهور العامة من الناس يكتفون بالظن[18] .

وينهي ابن رشد أسئلته بالسؤال الأكبر والخاص بالغزالي لما كفر الفلاسفة وقد قسمهم إلى ثلاثة أقسام كلها كافرة، وذلك لمخالفتهم الإجماع في المسائل الثلاث في قولهم بقدم العالم وإنكارهم علم الله بالجزيئات وإنكارهم المعاد الجسماني، فيتصدى ابن رشد لهذا التكفير ويدافع عن الفلاسفة بل يرد التهمة في كتابه المعروف تهافت التهافت، الذي يقابل كتاب الغزالي تهافت الفلاسفة.

نستخلص من خلال ما تقدم أن ابن رشد رأى في محاولته التوفيق بين الحكمة والشريعة، بأنهما أختان ليس من يفرق بينهما : الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ويختم رأيه في هذا الموضوع بضرورة النظر في كتب القدماء بل إنه من الشرع ...ومن نهى عن هذا النظر فكان أهلا للنظر فيه ..ويقصد بالطبع الغزالي.

أما بخصوص الطهطاوي فيعاب عليه فهمه وانطلاقه من الأمور المادية فكانت النتيجة فاسدة بالتبعية لأنه كان أسير التفسير المادي للظواهر والأحداث التاريخية. وهكذا بشر الطهطاوي الأمة الإسلامية بدين الغرب الجديد(الديمقراطية الليبرالية) وبقوانين الغرب وأخلاقهم !! ونتيجة تأثر الطهطاوي لأهل فرنسا وعلمائها وانبهاره بقوانينهم وسلوكياتهم، نراه يتأثر بالتفسير المادي في قراءة الأحداث التاريخية...

يمكن القول أن رفاعة رافع الطهطاوي هو أول من زرع البذرة الأولى للعلمانية في العالم العربي والإسلامي؛ هذه البذرة التي نمت في تربة غير تربتها الأصلية أنتجت في الأخير زرعا فاسدا .

المطلب الثاني: النقد الموضوعي لأفكار الطهطاوي

إن الدراسات الموضوعية والعلمية تتطلب النقد فعلا، وهذا النقد قد يكون إيجابيا أو سلبيا، لذلك لا يمكن الاكتفاء بالجوانب السلبية في فكر الطهطاوي وإغفال الجوانب الإيجابية، وعلى هذا الأساس فهناك من يرى بأن الطهطاوي هو أب حركة النهضة العربية الحديثة ورائد درب الصحوة الوطنية واليقظة القومية، وهو من بنى الأعمدة الراسخة التي أصبح بها للعرب عصرا حديثا، وأوصل حركة اليقظة التي صنعها بعصر المجد العربي وفترات ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وهو من قاد العقل العربي وإرشاده كي يتخطى عصور الظلام " المملوكية - العثمانية« " التي سادت العالم العربي لأكثر من خمسة قرون ...كل هذه الانجازات هي حقائق صلبة وعتيدة كما هي واضحة وبسيطة تطالعنا دائما عندما ننظر في أعمال الرجل الفكرية التي أبدعها والنوافذ الحضارية التي فتحها، والآثار العلمية والفلسفية والأدبية والتاريخية والجغرافية التي ترجمها، والجيل الذي صنعه كي ينهض معه بعبء صناعة الحضارة العربية الحديثة والمستنيرة، ويواصل من بعده احتراف هذه الصناعة، التي هي اشرف الصناعات[19](1)، صناعة الحضارة ...

أفكاره تحققت بعد قرنين من الزمن، فالدول العربية والإسلامية على غرار دول العالم تهافت وهرولت من حيث تدري أو لا تدري وراء تبني النظام الديمقراطي، بعد الجمود والغبن الذي أصاب مجتمعاتها نتيجة الأنظمة السياسية الفاسدة والمستبدة والمستنزفة لثروات وخيرات هذه المجتمعات، فقامت في بداية القرن الواحد والعشرين بثورات وانتفاضات ومسيرات تبحث من خلالها عن الخلاص والتخلص من هذه الأنظمة المستبدة ومن بقاياها فمنها من نجت وتحاول بناء نظام سياسي ديمقراطي ولو شكلي ومنها من لا تزال في فوضى التخلف والضعف، فلو تم تنبني هذه الأفكار في وقت الطهطاوي لربحنا وقتا طويلا وتجاوزنا هذه الفوضى ولأصبحنا الآن دولا متقدمة ومتطورة؟؟

الخاتمة:

بالرغم من تكوينه العلمي في مجال العلوم الدينية في جامع الأزهر، وأن انتقاله إلى فرنسا ليس للعلم وإنما لإمامة فرقة علمية، إلا أن الطهطاوي لم يكن حبيس التعليم التقليدي إن صح التعبير، بل أغتنم فرصة وجوده بفرنسا ليتعلم أولا اللغة الفرنسية ثم يدرس ما وصل إليه الغرب خاصة الفرنسيين في مجال الفكر السياسي والفقه أو القانون والتشريع، وهو ما جعل الطهطاوي عند عودته إلى مصر أن يحاول التوفيق بين العلوم الشرعية والعلوم الأخرى بحيث لا يكون

هناك تعارض أو تناقض بينهما، وبهذا يكون الطهطاوي قد لمح لإمكانية تبني الأمة العربية والإسلامية لنظام ديمقراطي ليبرالي قائم على مبادئ الديمقراطية ودون المساس بالمبادئ الدينية التي حملتها الشريعة الإسلامية السمحاء.، وقد تحقق ذلك لو نسبيا ولكن بعد قرنين من الزمن، ولكن ليس من خلال الطرح الفكري والفلسفي بل نتيجة الظروف التي مرت بها الدول العربية والضغوطات الداخلية والخارجية التي واجهتها،ما جعل قادة هذه الدول تلجأ إلى تبني شعار الديمقراطية هذه المرة مرغمة و بصورة سياسيا حملته مواد الدستور والقوانين؟؟

الهوامش:

1 - جهاد تقي صادق، الفكر العربي الإسلامي، دراسة في أبرز الاتجاهات الفكرية، ط1، جامعة بغداد : مديرية دار الكتب للطباعة والنشر،1993 ، ص 207

2- مُحَمَّد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي 1930 -1970 ، عالم المعرفة، العدد 35، نوفمبر1980 ، ص.58

3 - عزت قرني، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، عالم المعرفة، العدد30 ، يوليو1990 ، ص 54.

4 - مُحَمَّد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي :في الدين واللغة والأدب، الجزء الخامس، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر،.1981

5 - مُحَمَّد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي:التمدن والحضارة والعمران ، الجزء الثاني، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر،.1973

6 - عزت قرني، المرجع السابق الذكر، ص.35

7 - جهاد، المرجع السابق الذكر، ص.211

8 - نفس المرجع، ص.213

9 - نفس المرجع، ص.214

10 - جهاد، المرجع السابق الذكر، ص.224

11 -جهاد، المرجع السابق الذكر، ص.220

12 - جان توشار، المرجع السابق الذكر، ص.309

13 - جهاد، المرجع السابق الذكر، ص217

14 - مصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق الذكر، ص84

15 - يوحنا قمير، فلاسفة العرب :ابن رشد، ط 3 ، بيروت :دار المشرق،1997 ، ص.7

16 ـ عادل ثابت، المرجع السابق الذكر، ص11

* ـ سورة الزمر، الآية .17

** ـ سورة آل عمران، الآية19

17 ـ عمراني، المرجع السابق الذكر، ص.93

18 ـ يوحنا قمير، فلاسفة العرب :ابن رشد، المرجع السابق الذكر، ص28

* ـ اختلفت أراء المفكرين والمؤرخين حول حقيقة الخلافة العثمانية، فهناك من يرى بأنها حامية الخلافة الإسلامية ومنقذها وهناك من يراه بأنها استعمار تحت غطاء الخلافة الإسلامية ؟ ؟

19 -مُحَمَّد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي:التمدن والحضارة والعمران ، المرجع السابق الذكر .